

## مقدمة

ظهر الميل إلى اكتشاف الغيب المحجّب ، منذ وُجد على ظهر الأرض إنسان ، لأن مرادّ هذا الميل إلى طبيعة البشر النزاعة بفطرتها إلى معرفة المجهول - وهي معرفة تراد لذاتها أصلاً ، وإن جرت العادة باتخاذها أداةً لخدمة غايات - ومن هنا كان التنبؤ بالغيب ، مشار افتتان الشعوب في كل زمان ومكان<sup>(١)</sup> . وليس يتفق هذا ما يلاحظه البعض من أثر انتشار « العلم » في إضعاف هذا الميل عند الناس ، إذ ليس العلم في كل صورّه ، إلا محاولة ترمي إلى اكتشاف مجهول - واختلاف المناهج وتباين المقاصد ، لا يغير من هذه الحقيقة كثيراً . . !

وقد أدى تشارك البشر في فطرية النزوع نحو إدراك الغيب ، إلى تشابه الكثير

---

(١) حسب القارىء في بيان هذا الميل الفطرى عند الناس ، أن يطلع على أبحاث :

Bouché — Leclercq, L'Histoire de la Divination dans l'antiquité

بأجزائه الأربعة - ثم بحثه عن التنبؤ الإيطالى (باريس ١٨٨٢) وبحظه عن التنجيم الإغريقى (باريس ١٨٩٩) وأن يقرأ « العلم بالغيب » Divination لفيلسوف الرومان وخطيبهم شيشرون Cicero

وقد نقلناه إلى العربية وألقناه برسالتنا الدكتوراء « الأَحلام » ، وفي نيتنا أن ننشر ترجمته مع التعليق عليها قريباً ، وكذلك (Dr. Hastings) Encycloepedia of Religion and Ethics, art. Divination وقد اشترك في وضع هذه المادة سبعة عشر عالماً ، تناول كل منهم الحديث عن التنبؤ عند الشعب الذى تخصص في دراسته ، وهذه المصادر تزود من يريد التوسع في هذا الموضوع ، بكثرة من المراجع .

من أساليب التنبؤ عند الشعوب في مختلف المصور ، وقد خدعت البعض هذه الظاهرة ، فقررروا بأن هذا التشابه في كل حالاته ، مرجعه إلى نقل اللاحق عن السابق ، وعدوى الثقافات وتراوح الآراء ، واستندوا في هذا إلى انتقال الحضارات والثقافات ، من شعوب الشرق في ماضيه السحيق ، إلى شعوب اليونان والرومان ، وأحداها عن هؤلاء ، ووراث تراهم إلى العالم الإسلامي ... والرأى عندنا أن هذا التبادل العقلي بين الشرق والغرب ، إذا كان له تأثيره في وجوه التشابه في بعض فنون التنبؤ ، فالراجح أن الكثير من وجوهه الأخرى ، مرده إلى وحدة العقل البشري ، وتشابه استجاباته - مع اختلاف الزمان والمكان - كلما تشابهت المؤثرات ... بهذا يفسر جمهرة المحدثين من علماء الاجتماع الكثير من مظاهر التشابه في الحضارات البدائية ، حتى في بعض الحالات التي ثبت فيها الاتصال بين هذه الشعوب .. (١)

وقد مكنت الأديان لهذا الميل الفطري عند البشر ، لأنها لا تستقيم بغير الإيمان بالغيبيات ، وليس في هذا ما يضير الأديان في شيء - وقد أقر الإسلام نفسه العالم بالغيب ، وردّه إلى علام الغيوب ومن يجتنبه تعالى من رساله وصفوة المؤمنين من عباده ، وعرف العالم الإسلامي سنوفاً من مدركي الغيب ، يتقدمهم الرسل والأنبياء ، ويلهم الأولياء وأهل الكشف الصوفي ونحوهم من المجانين والبهاليل والمرضى والمستوهين من المريدين ، وأصحاب الرؤيا الصادقة ، وغيرهم ممن لا يتوسلون إلى إدراك الغيب

---

(١) إذا كان Elliot Smith قد رفض هذا الرأى الذي أيده Frazer وغيره ، ورد الحضارات إلى اختراع شعب واحد - قدماء المصريين - عنه أخذتها بقية الشعوب ؛ فقد دحض رأيه ساكس دوار ، وبدا هذا التفسير صحيحاً حتى في دقائق البحث العلمي ، وليس الاتفاق الفجائي الذي وقع عام ١٨٥٨ بين « ألدرد والاس » A. Wallace و « داروين » Darwin في وجهة النظر التطورية ، لإشهاداً على صحة ما نقول . وسنعود إلى بيان هذا في آخر فصل في هذا الكتاب

صناعة واكتسابا ، وأولئك هم أهل التنبؤ الطبيعي Natural Divination كما كان يسميه شيشرون Cicero وغيره من قدماء مؤرخيه .

وعرف العالم الإسلامي - مع هؤلاء - صنوفاً من أهل التكهن الصنعي<sup>(١)</sup> Artificial Divination الذي يقوم على منطقي العقل ومهارة الصنعة وسعة الخبرة ، وصدق الحدس وتوثب الفطنة ودقة الملاحظة ووقدة الذكاء ، ونحو هذا مما يجيء أغلبه اكتساباً - قد لا يفلح إذا لم تصحبه فطرة تمكّن من بلوغ غايته - وهو يشمل في الإسلام الكهانة والعرافة والعيافة والنجامة والطيرة والفراسة وما يتصل بهذه الفنون . والاستناد إلى منهج البحث العلمي ، والاهتمام بقانون العلية عند تحليل هذه الفنون التي استخدمت للكشف عن الغيب المحجب ، يفضي إلى عكس النتيجة التي انمقدعدها رأي جبهة مفكري الإسلام - فلاسفةً وصوفيةً ورجال شرع...!! وهذه نقطة ستتكشف مقدماتها في الفصول التالية ، ونمود إلى مناقشتها في نهاية هذا البحث .

وحسبنا الآن أن نقول إننا حاولنا في هذا الكتيب ، أن نؤرخ وجهات النظر الإسلامية في أشهر أساليب التنبؤ ، وأن نتبع أصولها في القرآن الكريم والتراث الإسلامي إجمالاً ، وتؤدي بنا هذا إلى الإشارة إلى ما يشبه هذه الآراء ، في تراث القدامى من الغربيين والشرقيين على السواء<sup>(٢)</sup> ، وإن اضطررنا ضيق المقام في كل حال ،

(١) الصنعي لفظ أطلقته جمع فؤاد الأول للغة العربية ، على ما يقابل عند الفرنجة

Artificial (fr:ielle)

(٢) كان أكبر اعتمادنا في ذلك على كتاب شيشرون السالف الذكر ، وتعليقات طبعه

« جارنييه » Garnier الفرنسية و « لويب » Loeb الإنجليزية ، و « بوشيه لوكايرك » ولم نجد ما يبرر التوسع في ذلك لضيق المقام .

إلى الإيجاز حتى فيما يتطلب الإسهاب . فحسبنا أن نشير في أذهان القراء هذه الوجوه من النظر العقلي ، كما تضمنها تراثنا الإسلامي ، عسى أن تكون إثارتها مزاجاً من اللذة العقلية والمنفعة المشتركة .

ولعل من المناسب أن نشير - قبل أن ننتهي من هذه المقدمة - إلى أن هذا الموضوع - فيما نعلم - بكر لم يطرقه أحد الباحثين من قبل ولا سيما ما اتصل منه بأساليب التكهن الصنمى - إذا استثنينا ما عرفته بمض فنونه في العربية قديماً ، من مصنفات أو مقالات قصار ، قلّ منها ما يدخل - من باب التجوز - في نطاق البحث العلمى .

وبعد ، فليس يسعنى فى ختام هذه الكلمة ، إلا أن أحيى الجمعية الفلسفية المصرية ، ممثلة فى رئيسها الأستاذ الدكتور على عبد الواحد ، شاكرآله ملاحظاته الطيبة على بعض نواحي هذا البحث ...

توفيق الطويل

الإسكندرية فى ١ شوال ١٣٦٤ هـ  
١ سبتمبر ١٩٤٥ م